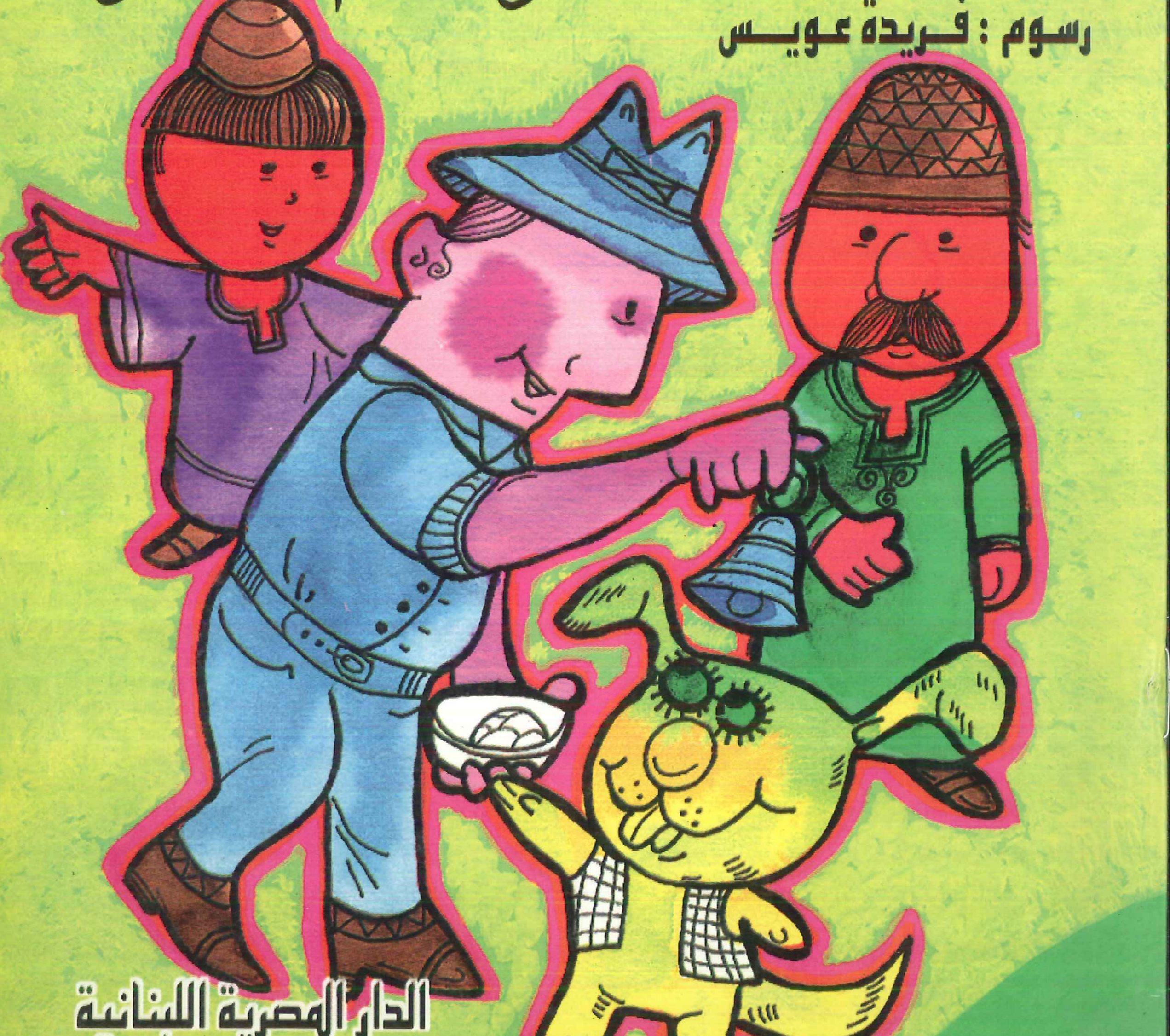
اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب

فلاح مصرى يقابل بافيلوف فى علم النفس

تأليف : عبد التواب يوسف

رسوم : فريدة عويس

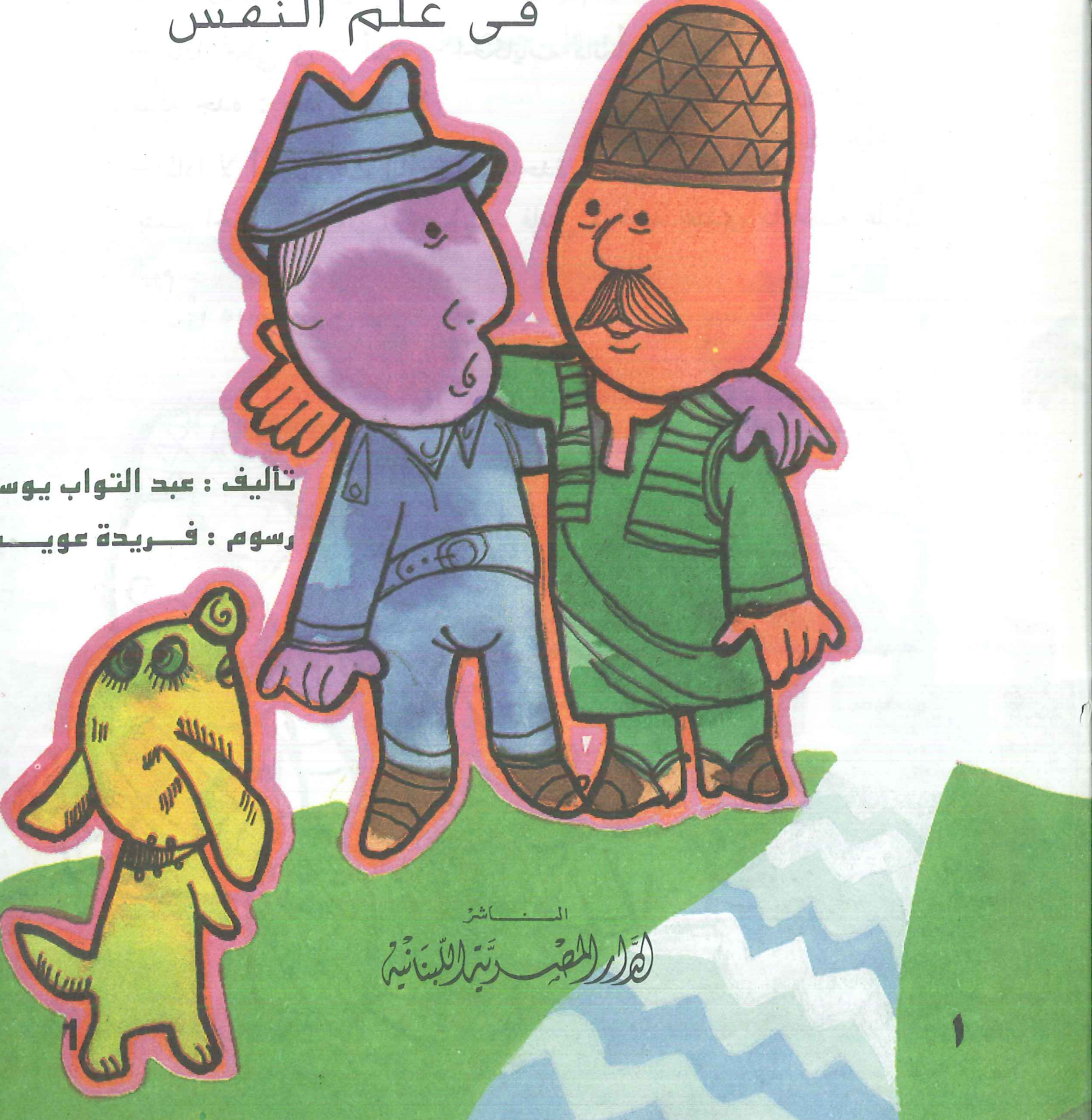


الدار المصرية اللبنانية

اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب

فلاح مصرى يقابل بافيلوف

فى علم النفس



تأليف : عبد التواب يوسف

رسوم : فريدة عويس

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

– ١ –

ذات مساء جلس « يوسف » الصغير إلى جده الكبير ، تحت الدَّوْحَة – أى الشجرة الضخمة – فى قريتهما الصغيرة بمركز الفشن ، بمحافظة بنى سويف ، وبقى الجد صامتاً ساكتاً ، على غير العادة ، وشعر « يوسف » أن العجوز ليس على مايرام ، وأحَسَّ أنه لا يرغب فى أن يحكي له قصة جديدة مثيرة كعادته ، ورأى « يوسف » أن يُضَاحِكَ جده ويُرَفِّهَ عنه ، وأراد ألَّا يُثقل عليه ، لذلك ابتسم فى « براءة » ، وهو يقول :

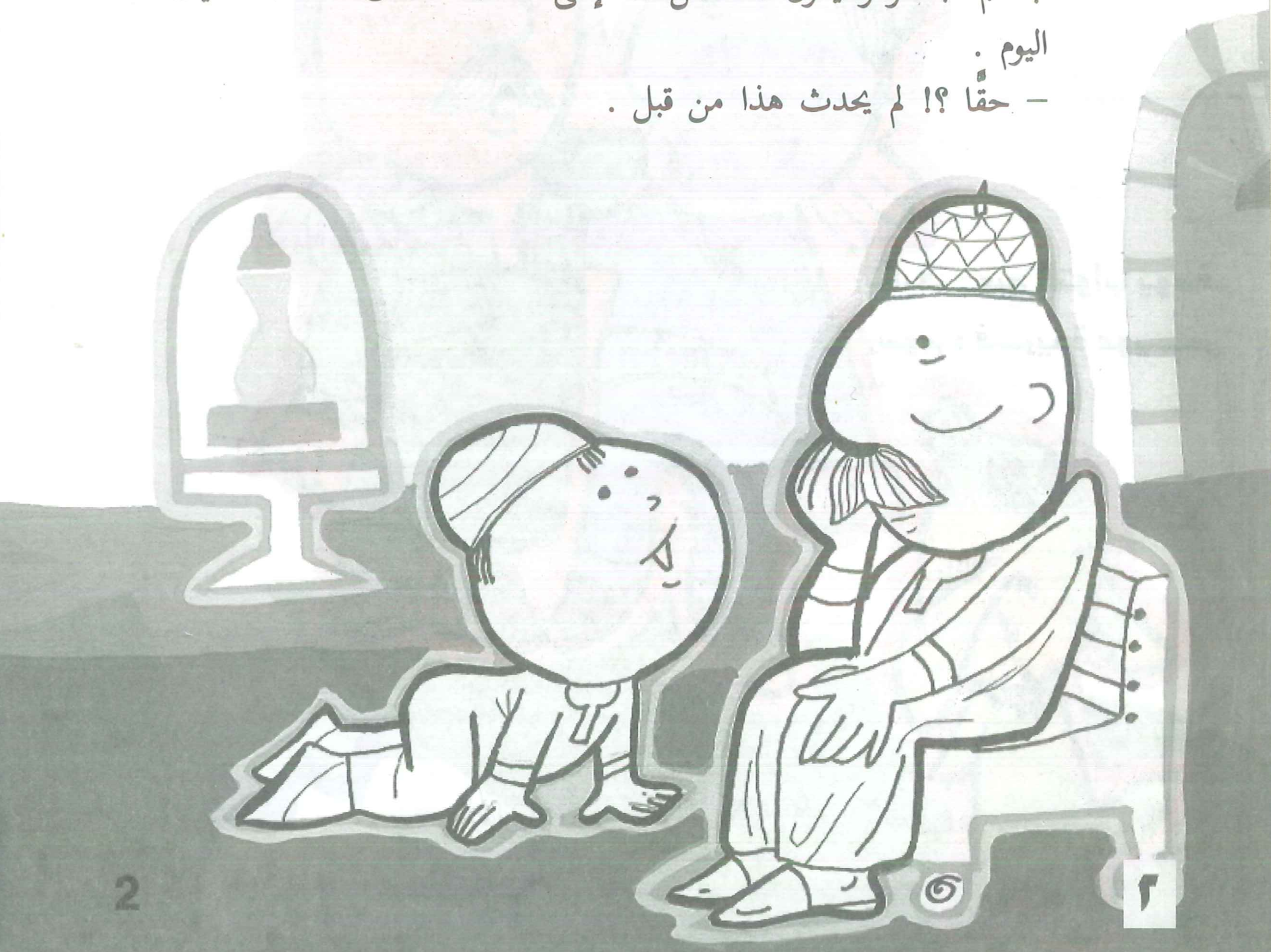
– لماذا تحكى لى – أنت – الحكايات دائماً ياجدى ؟

سأله جده : ماذا تقصد ؟

– لماذا لا أحكى لك أنا – مرة واحدة – من حكاياتى .

ابتسم الجد وهو يقول : تفضل .. فإننى لا أجد عندى ما أقصه عليك اليوم .

– حقًّا ؟! لم يحدث هذا من قبل .



- أنت الآن يا « يوسف » تحسن القراءة .. ولاشك أنك قرأت قصصاً يمكنك أن ترويها !

- فعلًا ، عندى حكاية ضاحكة ، غريبة بحق .

قال الجد - وقد ظهرت على وجهه علامات الجد :

- أريد أن أسمعها ..

- وأنا أريد أن أحكيها ، وأن أقرأ لك بعضاً من سطورها فى كتاب !

- لا بأس .. تفضل .

اعتدل « يوسف » الصغير فى جلسته ، وقلد جده حين يبدأ فى رواية الحكايات ، ومسح بيده على جبينه وقال :

- صَلِّ على النبى .

- عليه الصلاة والسلام .

قال يوسف :



كان المعلم « إيفان بافيلوف » يرتدى ثياباً زرقاء خشنة ، ويركب دراجته البسيطة ، وقد علق فيها سلة مملوءة بالخضراوات ، التى جَلَبَها من حقله ، وقابله صديقه فقال له :

– ما هذا الذى تفعله بنفسك يارجل ؟

قال بافيلوف فى حِدَّة :

– أنا لا يمكننى أن أقارن بين الرضا الجميل الذى يحسّه الإنسان عندما يقوم بعمل يدوى ، والذى يشعر به إذا قام بعمل عقلى .. كل منهما ضرورة .. جدى لأبى حرث الأرض ، ونجح فى حياته .. وأبى قام بأعمال عقلية ، ونجح .. ولكى نعمل عملاً عِلْمِيًّا ينبغى لنا ألَّا نهمل بالضرورة العمل اليدوى ، فنحن نعيش على نتائجه ونجنى ثماره !

قال العبارة الأخيرة وهو يشير إلى سلة الخضراوات .



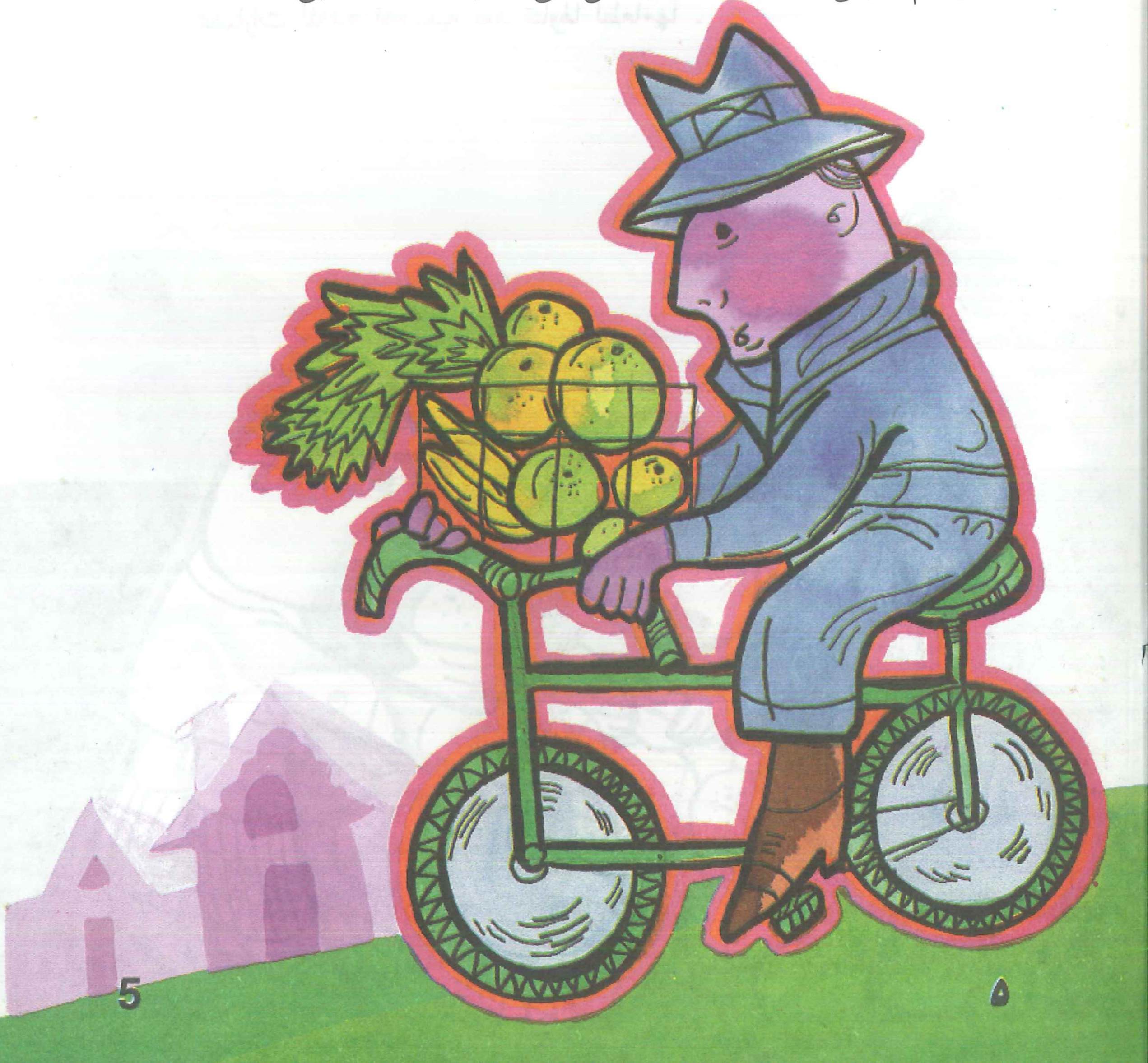
ابتسم الجد ، وقال :

– عالمك « بافيلوف » هذا محترم .. إنه عالم فى ثياب فلاح ، وفلاح فى ثياب عالم !

ضحك الصغير ، وصاح :

– جدى .. أرجوك ، لا تقاطعنى ، فإننى سأقدم لك مفاجآت كثيرة فى حكاياتى عن هذا العالم العظيم الذى تخصص فيما نسميه : « علم وظَائف الأعضاء » .

قهقه الجد مُعَقِّباً : « وظائف الأعضاء » أصبحت علماً ؟! ما أكثر علومكم ! إننى أعدك ألَّا أُعَقِّب على شىء ، إلَّا بعد أن تنتهى منه .



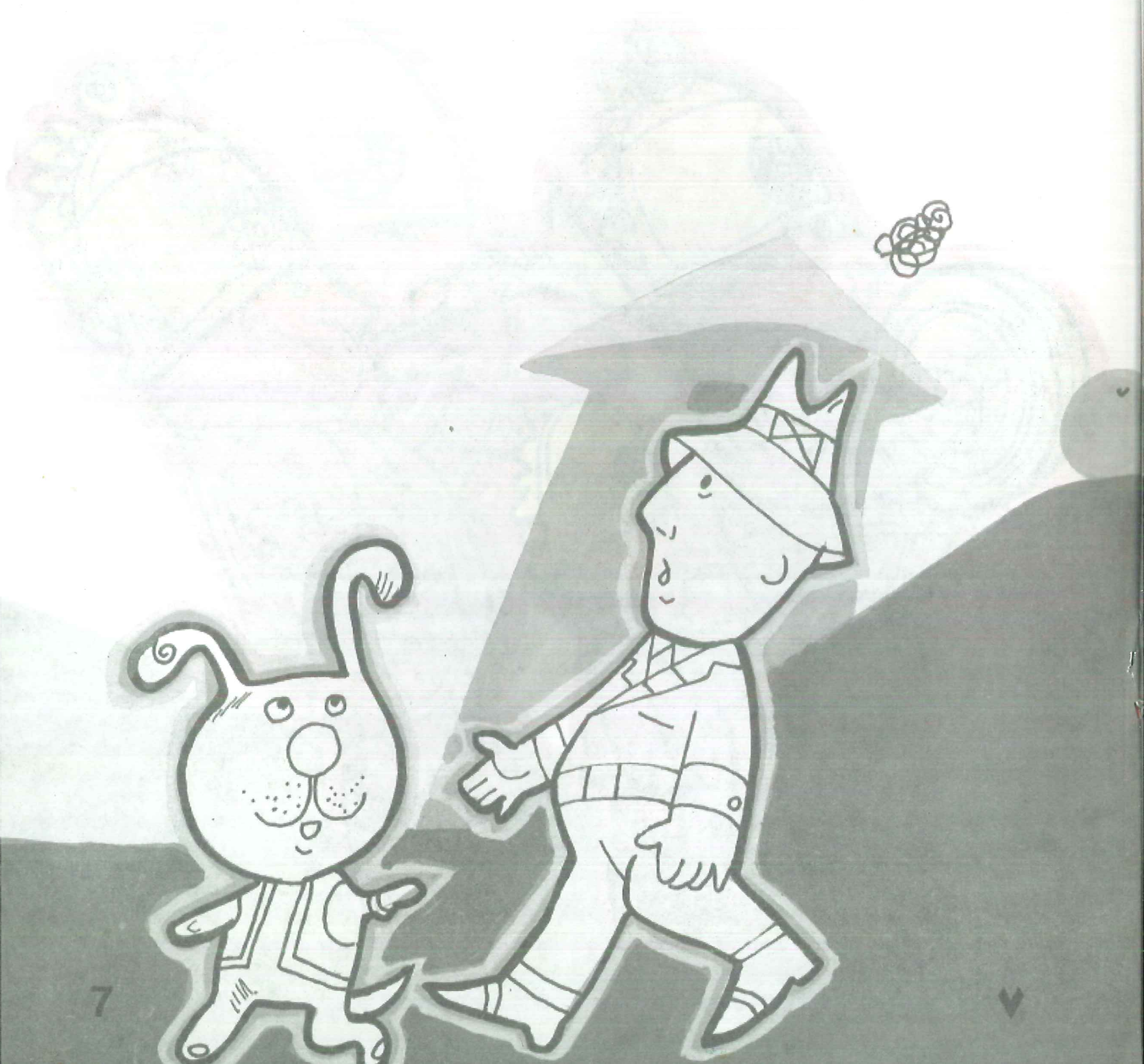
واصل « يوسف » حكاياته :

– هذا العالم ياجدى ، كان يحب الحيوانات كثيرًا .. وكان فقيرًا ، لا يمتلك ما يمكنه من إجراء بحوثه العلمية ، لذلك اختار لها الكلاب .. فليس هناك أكثر من الكلاب الضالة فى الطرقات .. كان يسعى إليها ، ويغريها بصداقته ، إلى أن تقبل الذهاب معه إلى بيته ، وتتحمل زوجته بعد ذلك رعايتها بعطف وحنان ، كأنها أطفالها – وكان لها من « بافيلوف » أربعة أبناء – وقد أدرك هذا العالم الجليل أن العناية بهذه الكلاب التعسة والعمل على تغذيتها وتنظيفها وإراحتها يأتى بنتائج باهرة ، خاصة أنه يحصل منها على عصارات للغدد الهضمية بعد تناولها لطعامها .



همّ الجد بمقاطعة « يوسف » ، لكن الصغير أسكته ببسمة رجاء حلوة .. وواصل حديثه قائلًا :

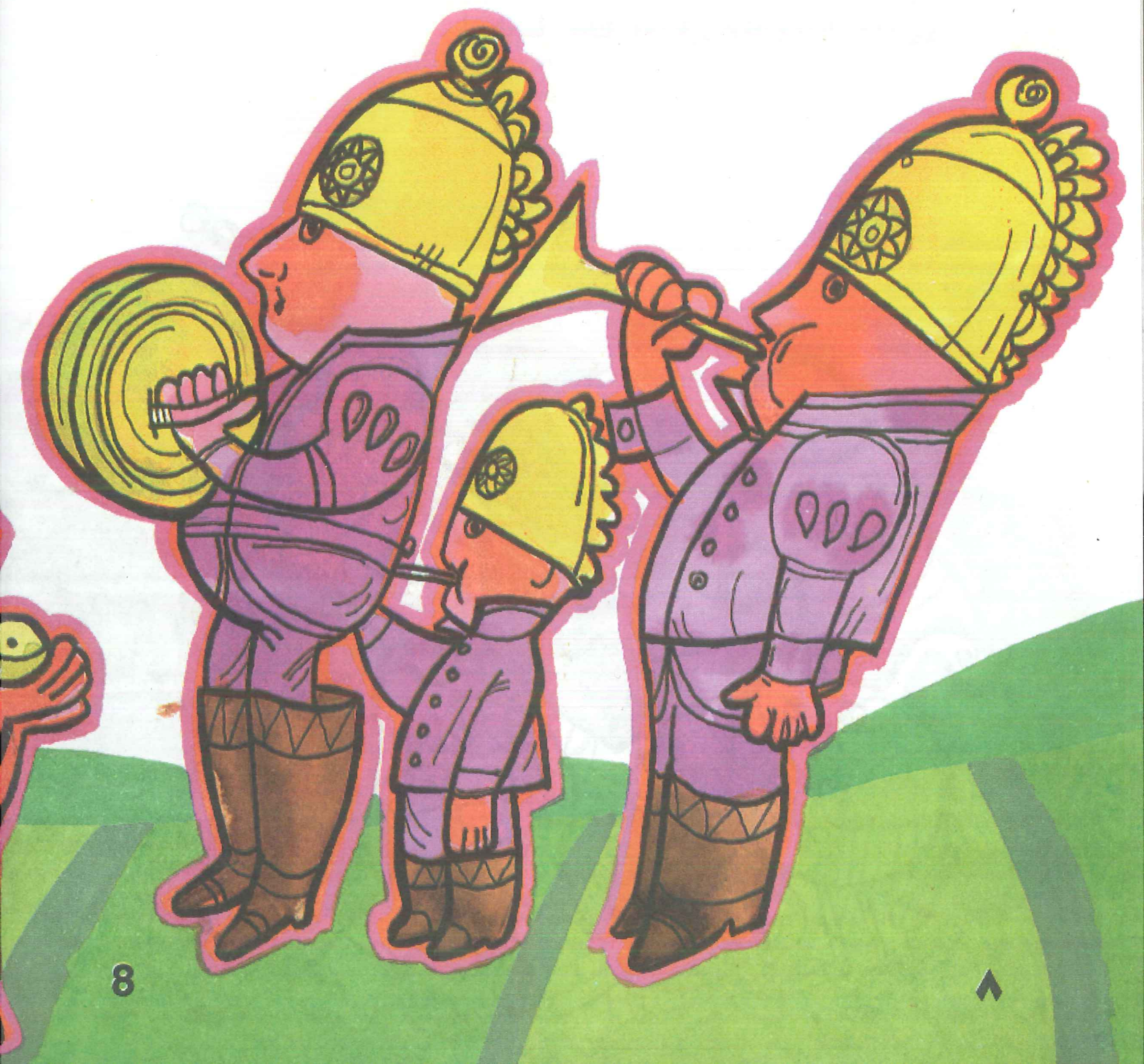
– نحن ياجدى أمام عالم وُلِدَ قبل مائة وخمسين عاماً .. ولم يكن العلم قد تقدم كما هو الحال فى يومنا هذا .. وكان عند الناس اعتقاد غريب ، ولطيف .. كانت هناك فرقة للموسيقى النحاسية تعزف فى شوارع المدن ، والناس يظنون أنه إذا وُجِدَ شخص يمص ليموناً أمام فرقة من هذه الفرق فإنها تتوقف عن العزف !



ضحك الجد ، وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة ، وقبل أن يفتح فمه بكلمه كان « يوسف » يقول :

– تفسير ذلك عندهم أن مص الليمون أمام العازفين يسيل لعابهم ، ويجرى اللعاب فى آلاتهم الموسيقية ، فيوقفها عن العمل .

وقهقه الجد .



وشعر « يوسف » بالسعادة ، لأنه يدخل السرور على جده ، الفلاح الريفى البسيط ، الذى يحب الزراعة والأرض ، ولا يفضل عليها شيئاً فى الوجود ، لذلك استمر الصغير يستعرض معلوماته عن ذلك العالم الكبير ، الذى قرأ عنه كثيرًا ، وأحبه ، وعَدَّهُ من أعظم علماء الدنيا ، مع أن أغلب تجاربه كانت عن الكلاب .



وأضاف « يوسف » :

– هذا العالم عظيم .. أرجوك لا تَستَهِنْ بمكانته .. يكفى أن أقول لك إنه حصل على جائزة نوبل فى العلوم – أكبر جوائز العالم .. وكان ذلك فى عام ١٩٠٤ .. إنه يستحق عظيم الاحترام .. هز الجد رأسه موافقاً على ما قاله « يوسف » .

– لكن أروع تجاربه ياجدى ، والتى استرعت التفات وانتباه كل الدنيا ، هى تلك التى حاول بها أن يعرف كيف يعمل الجهاز الهضمى ،



وما أقل المعلومات عنه فى ذلك الحين ، وما أكثر ما يصيب الإنسان من أمراض بسببه .. وسأحكى لك عن تجربة منها سوف تجعلك تضحك من قَلْبِكَ ، وستعرف أنه سبق الجميع إليها ..

أراد العالم الكبير « بافيلوف » أن يثبت أن منظر الطعام يُحْدِثُ تنبيهاً لدى الحيوان يكون من نتيجته إفراز العصارة الهضمية ، بالضبط كالمكافأة التى تدفع الولد الكسلان إلى العمل ، وأن هذا الإفراز يحدث بدون أن يكون للحيوان إرادة أو رغبة فى ذلك .. واكتشف « بافيلوف » أن منبهات أخرى غير عادية يمكن أن تُحْدِثَ هذه الإفرازات . لقد أتى بكلب - كانت تُعْنَى به زوجته - وتركه جائعاً بعض الوقت ، ثم دق جرسًا ، وأتى له بالطعام مع دقات الجرس .. وكرر هذه التجربة مع الكلب .. وذات مرة



دق الجرس ولم يأت بالطعام كالمعتاد .. وإذا به يكتشف أن لعاب الكلب قد بدأ يسيل .. وقد أثبت العالم الكبير بذلك لأول مرة فى العالم أنه إذا كان من المعتاد أن يدق جرس ، أو يومض ضوء ، أو يربت على الحيوان فى اللحظة التى نُقدم له فيها الطعام ، فإنه إذا حدث مثل هذا الشىء فى موعده بدون تقديم الطعام ، فإنه يسبب إفراز العصارة الهضمية ، ويُطْلَقُ على هذا العمل « الفعل المنعكس المشروط » !



ضحك الجد ، وقهقه .. ظن « يوسف » الصغير أن جده ضحك للقصة ، ولهذا الكلب ، لكن الجد كان يقهقه من القصة وعليها ، إذ لم يحسن « يوسف » روايتها ، ولم يكن فيها من القصة الكثير .

سأل « يوسف » جده :

- هل أعجبتك هذه القصة كثيرًا ، وأضحكتك إلى هذا الحد ؟

- لا .. إنها ليست قصة ، ولا هى جديدة علىَّ .



– هل سمعتها من قبل ؟

– أبدًا .. لكننى كنت أشارك أبى وجدى فى « صُنعها » فى الماضى !

– ماذا تقصد ياجدى ؟

– إنها تجربة « البَوّ » عندنا نحن العرب ، فى مصر وفى غير مصر ، نقوم بها منذ مئات السنين ، وقبل عالمك الجليل « بافيلوف » بمئات السنين .. إذ كنا نواجه مشكلة الحصول على اللبن من البقرة أو الناقة أو النعجة حين تُحْرَمُ هذه الحيوانات من وليدها الصغير الذى تُرضعه .. البقرة تُدِرُّ اللبن



ليرضعه عجلها ، والناقة تعطى لبنها لابنها البكر ، والنعجة تطعم الشاة الوليدة .. فإذا أخذنا الصغير من أمه ، أو بِعْنَاه ، أو أكلناه ، كثيرًا ما كانت الأم لا تحلب اللبن ، ونحن فى أشد الحاجة إليه .. لذلك كنا نصنع « البَوّ » ..

– وما « البَوُّ » ياجدى ؟

– إنه جِلْدُ وليدٍ صغير ، يُحْشَى بالتبن ، ونجعل له قوائم ليشبه الصغير الذى حُرِمَتْ منه أُمه ، وعندما ترى الأم هذا الوليد تطوف به ، ثم تعود فتدر اللبن .. جدودك قبل العالم « بافيلوف » صنعوا هذا .. صنعوا خَيالَ حقلٍ من الحيوانات ، فيحدث هذا الذى قرأت عنه .



– ماذا سميته ؟
– يسمونه « رد الفعل المنعكس الشّرطى » .
– لو أن فلاحاً مصريًّا أو عربيًّا قابل « بافيلوف » عالمك الجليل ، لعلمه هذا الشيء بدون حاجة إلى أن يبذل جهدًا مع كلبه العزيز !
هتف « يوسف » : ما أروعها حكاية !
قال الجد :
– هيا : تحركوا .. اصنعوا شيئًا .. ولا تكونوا كما كان أهلنا يقولون : « فلان مثل البو » ، أى : أنه ليس شخصًا حقيقيًّا ، بل هو مجرد « خيال مآتة » أو « ناطور حقل » محشو بالقش .. هيا .. اصنعوا ما يجعلكم جديرين بجدودكم !

* * *

